القراءة ينبوع الحياة والتجدد

وغذاء الإنسانية والطموح

بقلم الأستاذ س . . .

وجه لورد "بلدوين" رئيس الوزارة البريطانية الأسبق إلى الشبان كلمة جاء فيها :

" كثير من الناس حاولوا تربيتي، ولكن استجابتي لهم لم تكن على الدوام موفقة . ومعظم ما حصلت عليه من تربية إنما اتفق لي بعد أن دخلت غمار الأعمال في لحظات الفراغ الطارئة وفي أسفاري على السكك الحديدية ؛ وبقيت سنوات وأنا أعمل طول النهار وأقرأ في المساء لا تفوتني ليلة . وإني أشعر أن هذه التربية هي التي عادت علي بأعظم الفوائد " .

وجاء في موضع آخر منها :

" إني رجل لم أحصل من التربية إلا على نصفها . فقد كنت متوسط النشاط في المدرسة ، ولكني لم أنجح في الجامعة ومن ذلك الوقت أحاول تدارك ما فاتني . وليس في الدنيا لذة تساوي لذة الدراسة . ولذة الحياة العظيمة ذاتها لذة غير متناهية . فادرسوا مدى حياتكم ، وأنا لازلت أدرس ، وسأبقى على الدرس ولو بلغت المائة ، وليس هناك ما أتطلع إليه بعد أن أترك الوزارة غير استئناف الدرس في حماسة وهمة " .

وهذه كلمات لا تحتاج إلى تعليق لبيان قيمتها وتمجيد بواعثها النفسية والإنسانية ؛ ولكن يخيل إلي أننا في مصر نحتاج إلى أن نقسم على صحتها وأن نتعب في إقناع الكثيرين بجديتها ، وأنها لا تقال لمجرد الزهو والفخر أو مجرد الوعظ والنصيحة ، بل إن قائلها يقصدها و يقصد الدعوة إلى تحقيقها الواقعي .

وإنما خيل إلي هذا لما لمسته في مصر من قلة الاطلاع بل ندرته بين شبابنا وشوابنا و بين رجالنا ونسائنا من المتعلمين والمتعلمات ، ولما شاهده من الزهد في القراءة بعد اجتياز الامتحانات المدرسية ، ومن الكسل في تتبع المطابع وما تخرجه من كتب ومجلات وصحف ، واستخسار النقود فيها دون الكماليات الأخرى التافهة التي لا تعود على صاحبها بفائدة عقلية أو روحية وكثيرا ما تكون ضارة من الوجهة الحيوية .

ولا زلت أذكر يوم دخل بائع الصحف في المكتب الذي يتصل مع بعض الموظفين الوزارة فاشتريت منه المقتطف والهلال والثقافة و لرسالة (وكانت مصادفة في أول الشهر)

فإذا بأحدهم يأخذ على هذا الإسراف الذى لا مبرر له ، وليسائلنى فى دهشة : "وما الفائدة من هذه المجلات ؟ إنه عبث فارغ خسارة فيه النقود ! " .

وصاحبنا هذا مثل لتسعة أعشار الموظفين والمتعلمين فى البلد . وهى حالة بائسة تدل على نضوب فى معين الحيوية النفسية والفكرية ، وتدعو إلى كثير من التشاؤم وسوء الظن بالمستقبل. ولولا أمثلة نادرة من القراء المتطلعين المشغوفين بالقراءة ، لنفض المرء يديه من هذا الشعب الذى لا يجد فى نفسه حافزا للمعرفة . هذا الحافز الذى لا تخطئ دلالته على ما فى النفس الانسانية من رصيد .

ومن الأمثلة الحية التى يصح ذكرها فى هذا المعرض النادر الأستاذ "العقد" هذا الرجل الذى خلق نفسه بعد الشهادة الابتدائية وصار فى طبيعة أدباء الشرق ومثقفيه ، لأنه عكف على القراءة مدى أربعين سنة لا يتخلف ليلة واحدة إلا لمرض قاهر أو عذر طارئ . ذلك أنه يعد القراءة وظيفته الأولى فى الحياة قبل الاشتغال بالسياسة وقبل النيابة فى البرلمان !

وإذا كانت القراءة ضرورية فى عصر من العصور ، فإنها فى عصرنا الحاضر ألزم وأشد ضرورة ، ذلك أن الحياة فى هذه السنوات متجددة والمعارف متلاحقة ، والعلوم والفنون متعددة ، وفى كل يوم جديد لابد من الإلمام به — إلى حد ما — حتى يحتفظ الإنسان بالتناسب والانسجام بينه وبين خطوات الحياة ، وإلا أصبح قطعة من قطع الآثار ، أولى بها أن تودع فى متحف ، لا أن تتحرك حركة لأحياء فى هذا الزمان .

وأذكر أنى أحسست بهزة فرح يوم قرأت اسمى بين الناجحين فى الدبلوم النهائية ، ومعظم هذا الفرح كان منشؤه شعورى بالطلاقة من عهد التعليم المقيد ، لأستطيع السير فى طريق الثقافة الحرة والاطلاع الطليق ، وقد أعلنت هذه النية يومها على صفحات جريدة الأهرام قائلا : " إننى سأترك المدرسة لأتعلم " !

وإذا كان لى ما أحمد الله عليه ، فهو أنى وفيت ما وعد قدر ما أحد من وقت واحتمال فى قراءة كل ما أستطيع لاستفادة منه وما تؤهلنى ثقافتى للانتفاع به . بل لقد حاولت — وأفلحت إلى حد كبير — أن أتخطى قيود ثقافتى المحددة فأقرأ فى نطاق العلوم البحتة وفى مراجع الاقتصاد والقانون والسياسة وفى كل ما تدور عليه الثقافة والحضارة الراهنة بقدر المستطاع .

وكما يقول اللورد بلدوين : " ليس فى الدنيا لذة تساوى لذة الدراسة " والذين ذاقوا هذه اللذة هم الذين يدركون ما فى هذا القول من صدق وعمق ، ويا ليت الذين لم يذوقوها يحاولون تجربتها ولو مرة واحدة !

ولست أنوى أن أكتب هنا موضوعا إنشائيا عن "فوائد القراءة !" ولكن لا بد من تسجيل بعض الملاحظات المأخوذة من واقع الحياة ومن الدراسات السيكولوجية العامة .

فالمشاهد أن معظم من يتمون دراستهم أو يغادرون مقاعد الدراسة قبل إتمامها فى بلادنا ينسون ماتعلموا بعد فترة طويلة أو قصيرة ، ثم يستغرقهم العمل الذى يزاولونه ، أو يشغلهم الفراغ الذى يلهون فيه عن استعادة ما نسوه ، و بطبيعة الحال عن الاسترادة من المعرفة . فلا تلبث أن تراهم قد وقفت شخصياتهم عن النمو و بعدوا عن روح الابتكار والتجدد ، وأصبحوا يؤدون أعمالهم برتابة كرتابة الآلات أو ما يسمونه " الروتين " .

وكثيرا ما خيل إلى أننا نستطيع أن نستبدل بالكثيرين من الموظفين آلات ميكانيكية فلا يختل العمل الذى يقومون به بل ربما زاد نظاما ودقة ، وحين تتكمش الفروق بين الإنسان والآلة ، فإن البشرية تخسر كل خطواتها الهائلة فى التطور من الجماد إلى الأحياء!

والقراءة تنمى الخيال فتتسع دائرة الأمل وتكبر قيمة الحياة وتصبح للمرء فيها أهداف أبعد من الطعام والشراب واحياة اليومية التافهة ، أهداف أخرى غير " الروتين " اليومى وغير العلاوات والدرجات وغير الأحاديث المكررة المعادة ، وغير تناقل الأقوال والإشاعات فى عالم الرجال ، وأما فى عالم النساء فتخفف حدة الانهماك فى الموضات والأزياء وتقصى الأسرار والأخبار عن البيوت والأسر وقرقزة اللب وقتل الوقت فى مثل هذه التفاهات !

على حين تضيق آفاق الحياة وتصغر أهدافها حين يقف النمو الذهنى نتيجة الكسل عن الاطلاع والمعرفة، ومتى ضاقت آفاق الحياة فلن يبقى للناس إلا الحياة اليومية، وفيها كثير من المنغصات التى تضغط على أعصابهم دون أن يجدوا لأنفسهم منها مهربا فى عالم آخر أكبر من عالم اليوميات ، وعاقبة هذا الضغط غير مأمونة ، فإنها تدفعهم إلى السأم والتشاؤم وقلة الاحتمال ، فإما أن يخضعوا لهذه الحياة ، و إما أن يلجأوا إلى سلويات كاذبة فى المكيفات والعادات الضارة . فتكون هذه أول مرحلة من مراحل الخلل الشخصية وضياع الصحة والمال .

والانعزال عن مد الحياة وجزرها ، والانزواء فى عالم ضيق تحده المطالب اليومية والحاجات الشخصية من شأنه أن يقوى غريزة حب الذات ، و يكف الإنسان عن الاشتغال بالهموم العامة . فيغدو أمرا لا يكترث شأن الجماعة فى الوطن أو الإنسانية ، ولا تهمه آلام المجتمع وشواغله .

و يتبع هذا وذلك انحطاط المستوى النفسى والعقلى ، والانتكاس إلى عالم الغرائز ، والفراغ الخالى من الهموم العالية ، ومن هنا تعمر المقاهى والمشارب بأولئك الذين

"يقتلون الوقت" ويمضون الفراغ في التسكع والتطلع إلى الوجوه الرائحة الغادية ولعب النرد والدومينو إن لم يكن فيما هو أشنع من ذلك من ضروب الانحلال النفسي والخلق .

* * *

ولكن حب القراءة لا يكفي في خلقه كتابة مقال كهذا المقال ، فحب القراءة عادة يجب غرسها في النفس الانسانية منذ أيام الطفولة ، وغرس مايضمن بقاءها ونموها على مدى العمر من الحوافز النفسية الأخرى . والحوافز على القراءة كثيرة ولكن في مقدمتها غنى النفس وتعظيم الحياة وتقدير الإنسانية والثقة في مصيرها وفي سيرها نحو الكمال .

وهذه كلها معان يجب بثها في نفوس الناشئة لا بالمواعظ الجافة ولكن بالقدوة والعمل والتكرار في المناسبات الحية داخل جدران البيت والمدرسة وفي كل مكان .

ودون عنايتنا بهذه الشؤون في مرحلة الدراسة مسافة بعيدة ، فيجب أن نقنع ببث عادات أقل من هذه مستوى وأدنى إلى التحقيق العملي في مرحلتنا الحاضرة .

ولست أكتم القائمين على شئون التعليم أن وسائلنا وطرقنا الحاضرة تعمل في نفوس التلاميذ عملا دائما لكراهة الكتب ومجانبة القراءة .

فعقلية التعلم للنجاح في الامتحان وللحصول على الشهادات ، هي العقلية المسيطرة التي تجعل القراءة وسيلة محدودة لغاية قريبة ، فتلق في روع التلميذ أنه ليس مطالبا بالقراءة إلا لبلوغ هذه الغاية ومتى بلغها انتهت مهمته .

وطريقة التدريس ، طريقة الاستذكار والتحفيظ ، تجعل التلميذ ضيق الصدر بالقراءة كارها للكتاب ، فما يكاد يؤدي الامتحان حتى يتخلص من هذا الكابوس ، ويطلق الكتب وما يمت اليها بصلة من كل مراجع المعرفة .

والكتب ذاتها جافة مبتسرة لا جمال فيها ولا تشويق ، وبعض التلاميذ والطلاب يرى في الكتب المدرسية أشباحا مخيفة مكروهة ، ومن النوادر التي أذكرها أن طالبا بمدرسة ثانوية صوب النار من مسدس على كتاب اسمه "التطبيقات" فمزقه الرصاص ! . وفي هذه الحادثة ما يدل على مدى حقد الطلاب على الكتب المدرسية التي يعدونها بلاء يحتمل لغاية مقصودة !

* * *

ومن الضروري أن نعمل على تغيير هذه الحال ، وذلك يتحقق في رأيي بالوسائل الآتية :

١ — تغيير هدف القراءة ، بجعلها غاية فى ذاتها لا وسيلة ، ويستطيع الاساتذة أن يغرسوا هذه العقيدة فى تلاميذهم بالتكرار وبالقدوة العملية ، فمما يؤسف له أن كثرة الأساتذة تنقصهم هذه الروح ، وقد كنت فى أيام اشتغالى بالتدريس أقوم على تنظيم مكتبة المدرسة وإدارة حركتها ، فكان مما يلفت نظرى أن غالبية المدرسين لا يستعيرون منها إلا الكتب المدرسية المقررة التى يحتاجون اليها فى الدرس ، وقلما كانوا يستعيرون الكتب الثقافية الأخرى التى توزعها الوزارة على مكتبات المدارس وتؤدى ثمنها آلاف الجنيهات .

وللأساتذة بعض العذر لا كله . فهم مرهقون بالدروس إلى درجة لا يستقيم معها تعليم مثمر ، والفصول مزدحمة بالتلاميذ إلى حد لا يمكن فيه التوجيه الصحيح . ثم هم مغبونون من الناحية المادية غبنا لا شك فيه . ولا تشاركهم فيه طائفة أخرى من طوائف الموظفين ، وآمالهم فى الرقى محدودة وتطلعهم إلى الأمام مكفوف بقيود ثقيلة .

ولكن هذا كله لا يعصم بعض الأساتذة المشغوفين بالمعرفة عن القراءة التى أصبحت جزءا من نفوسهم ودفعة فى دمائهم . والذين يقرءون منهم يجدون فى لذة القراءة عوضا عن هذا الواقع المؤلم ، وتتجدد فى نفوسهم الآمال وغالبا ما يصلون إلى مراكز خير من مراكز زملائهم ، على الرغم من سوء تقدير الكفايات فى الدواوين .

وتستطيع وزارة المعارف أن تنشط هذه النفوس الخامدة ، بتنظيم محاضرات صيفية وليلية للأساتذة يكون لحضورها والانتفاع بها وزن فى تقدير المدرسين ، كما تستطيع أن تجعل لحركة الاستعارة من مكتبة المدرسة نظاما وإحصاء له قيمته ، وأن تشجع المشتغلين بالقراءة والتأليف من مدرسيها بالمكافآت والترقيات متخطية بذلك نظام الأقدمية فى بعض الظروف .

ومتى نشطت نفوس الأساتذة فإنهم يعدون تلاميذهم بالنشاط ، ويملئون نفوسهم الصغيرة بالثقة والتطلع ، ويبثون فى قلوبهم المتفتحة روح الأمل والتفاؤل ، ويعلمونهم من حيث لا يشعرون أن للحياة قيمة ، وأن للإنسانية أهدافا . وأن الطعام والشراب ليسا أثمن ما فى هذه الحياة .

ومتى شعرت النفس بهذه المعانى اندفعت إلى القراءة والمعرفة اندفاعا طبيعيا وانبعثت اليها انبعاثا ذاتيا هو أجدى من الإكراه لوقتى تحت ضغط الامتحان ، أو الرغبة القريبة تحت تأثير الجوائز والمكافآت .

٢ — تغيير الكتب الجافة التى فى أيدى التلاميذ ، واستدراجهم الى القراءة بالكتب المزينة رشيقة فى مرحلة الطفولة ، والكتب الحية المشوقة الجديدة فى مرحلة الشباب .

فمن يحب أن يحرص واضعو المناهج على استبعاد الأدب الحي الجديد من برنامج اللغة العربية ، لغة البلاد التي يجب الحرص على غرس حبها في النفوس ، فالغزل والقصة بأبان لا وجود لهما في الأدب العربي المقرر ، والشعر والنثر في العصر الحاضر المدن يمثلان الحياة الجارية لا وجود لها كذلك .

ولما فتح الله على واضعي المناهج بإدخال أدب العصر الحديث وقع اختيارهم على مقطوعات للساعاتي وعبد الله فكري وحمزه فتح الله وحفني ناصف وغيرهم من هؤلاء الفضلاء الذين لا نحط من قيمتهم إذا قلنا إن أدبهم أصبح في عصرنا الحاضر أدب عاديات يوضع في المتاحف ويدرس لمعرفة خطوات النهضة لا ليكون نماذج حية تختلط بنفوس الطلاب في هذا الزمان !

ولا يستطيع الإنسان بعد البحث والتمحيص أن يجد نصوصا أجمد وأبعد عن الحياة من النصوص المختارة للدرس من جميع العصور منذ الجاهلية إلى يومنا هذا . ومن الغريب أن يجتنب الاختيار كل مقطوعة حية لشاعر أو كاتب في مدى هذه القرون ، ليعثر على الأبيات الميتة والفقرات الجافة دون أن يخطئ مرة واحدة فيختار قطعة حية في كتب الطلبة المساكين !

ولا يقتصر هذا الجفاف على كتب الأدب العربي ، فهو يتمشى في المواد الأخرى . ففي مادة التاريخ مثلا لا توجد ترجمة كاملة حية لشخصية من الشخصيات نجملها طعما لاصطياد الانتباه في التلاميذ ولاستثارة إعجابهم نحو صاحب هذه الشخصية . بل هناك سرد ممل لتتابع الدول والملوك لا يمكن الانتفاع منه إلا بالحفظ حتى يوم الامتحان .

ولو كان محور الدراسة التاريخية هو السير الشخصية أو التصوير الحي لحياة الشعوب في بعض الفترات ، لكانت هذه الدراسة من وسائل غرس حب القراءة وعادة المطالعة ، فليس ألذ من درس السير أو القصص التاريخية في مرحلة المراهقة . ولكنا نتجسس ذلك إلى ما يوجب عناء الحفظ وكراهة القراءة في كل مراحل الدراسة .

وقس على هذه وتلك بقية الكتب ، وبقية المناهج ، وبقية طرق الدرس ، وهي تتعاون جميعا في قتل روح الاطلاع ، وتشويه القراءة في نفوس الطلاب .

فمن الواجب أن تغير الكتب والمناهج وطرق الدراسة بما يضمن تغيير هذه الحال

٣ — تدريب التلاميذ والطلاب على القراءة المفيدة ، وعلى الانتفاع بما في أيديهم من الكتب وبما في المكتبة من مؤلفات ، وتسهيل حصولهم عليها داخل المدرسة وخارجها فأمناء المكتبة يجدون أنفسهم مضطرين لحجر الكتب عن التلاميذ خالف أنها مقيدة عليهم "عهدة" وما يتلف منها أو يضيع يحصم من مرتباتهم الخاصة .

وحينما كنت أمينا لمكتبة المدرسة تلافيت هذه العقبة بأن شجعت التلاميذ على دفع تأمين شخصي في مقابل أن أسمح لهم باستعارة الكتب التي يختارونها من المكتبة . فإذا تلف الكتاب تلفا شديدا أو فقد خصمت التأمين الذي دفعوه كله أو بعضه حسب ثمن الكتاب.

ولكن هذه الطريقة جعلت عدد التلاميذ الذين ينتفعون بالاستعارة الخارجية محدودا وذلك فوق ما كنت أتعرض له من اتهام بمخالفة الأوامر التي تقضي بعدم جباية نفقات من التلاميذ غير المصروفات المقررة .

وكذلك بعدم حيازة المدرس لأية نقود مجموعة من التلاميذ .

وهي تبعة لا يقدم كل مدرس على تحملها !

وتستطيع الوزارة أن تفرض على التلاميذ رسم مكتبة بما يعادل خمسة وعشرين قرشا ، على شرط أن يرد في نهاية العام للتلميذ الذي لم يتلف كتابا ولم يضعه ، وبذلك يكون لكل تلميذ الحق في الاستعارة الخارجية لبعض الكتب التي ترى المدرسة انتفاع التلاميذ بها من المكتبة .

ويجب أن يكون مفهوما أن هذه الإستعارة الخارجية من أكثر الحوافز قوة في دفع التلميذ إلى القراءة لشعوره بأنه يملك الكتاب بعض الوقت ؛ ولا يسد مسدها أن يقرأ في المكتبة حصة ثم يدع الكتاب ويخرج قبل أن يتمه كما هو متبع في وقت النشاط المدرسي للمكتبة .

وهناك طريقة أخرى يمكن اتباعها مع هذه : وهي أن يجمع مدرس الفرقة مبلغا صغيرا من كل تلميذ في الشهر ويشتري بالمجموع عددا من الكتب يتناوبها التلاميذ طول الشهر ومثلها عدد من الصحف والمجلات ويكون منها مكتبة خاصة تنمو على مر السنين ويرثها التلاميذ الحاليون عن التلاميذ المتخرجين ، فتكون تركة للمدرسة وسجلا لنمو حركة القراءة بها .

وحبذا لو أقيمت مباريات بين المدارس المختلفة على أساس نمو مكتبات التلاميذ الخاصة وعلى سجل انتفاعهم في كل مدرسة ، بحيث تصبح المكتبة مفخرة للتلاميذ الحاضرين والسابقين وتصبح القراءة مجالا للمؤانسة والمباهاة .

* * *

ولا بأس في نهاية هذه الكلمة أن نشير إلى منابع الثقافة التي يتحتم على الرجل العصري أن يلم بها حتى يعد مثقفا في هذا الزمان .

تنقسم هذه المنابع إلى ثقافة قومية خاصة وثقافة إنسانية عامة . فأما منابع الثقافة القومية فيجب أن نبحث عنها في تاريخنا القديم والحديث ، وفي ديننا الذي يشترك في تكوين أخلاقنا وثقافتنا الروحية وفي تراثنا الأدبي والفني في اللغة العربية والآثار الفنية . وفي البحوث التي تتناول أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية والمالية الحاضرة .

وأما منابع الثقافة الإنسانية فيجب أن نبحث عنها فى التاريخ البشرى العام، وفى الآداب والفنون العالمية . وفى العلوم الحديثة التى تسيطر على عالمنا الحاضر ، وتتناول حياتنا من جميع جوانبها، ولا بد لكل إنسان عصرى أن يلم بطرف منها، وأن يعرف ولو شيئا عاما عن اتجاهاتها ومدى تقدمها فى الميادين المختلفة .

وبهذه المناسبة نقرر أن باللغة العربية نقصا فى هذا المجال . لا فى طبيعة هذه اللغة ولكن فى عدد المؤلفات والمترجمات فى أصول الثقافة البشرية العامة، وهو نقص لا بد من استكماله بمضى الزمن، ولا بد أن تتعاون الهيئات العلمية على سده فى أسرع وقت .

وهناك مؤلفات أصبحت الآن أساسية فى كل ثقافة بشرية وهضمتها اللغات جميعا ، وباتت عنصرا من عناصر الاتجاه الفكرى والنفسى ، وآثارها تجرى فى كتاباتنا وأحاديثنا بينما أصولها لم تنقل كاملة إلى اللغة العربية . مثال ذلك نظرية النشوء والارتقاء لداروين وشراحه ومعارضيه ، ومذهب العقل الباطن لفرويد وأتباعه ، ونظرية النسبية لإنشتين وأمثالها .

وقد أخذت ادارة الترجمة بمراقبة الثقافة العامة بوزارة المعارف فى ترجمة بعض أمهات الكتب الثقافية الى اللغة العربية فينبغى أن تلقى هذه الحركة من التشجيع والتأييد ومن السخاء المادى ما يسمح لها بالنمو والازدهار .

كذلك يجب أن يكون هذا عمل جمعية كجمعية التأليف والترجمة والنشر . وعمل بعض لجان المجمع اللغوى ، والمجمع العلمى ؛ فهذا التراث البشرى العظيم قد انتقل الى معظم اللغات فيجب ألا تخلو اللغة العربية منه ، وهى اللغة التى حفظت للعالم تراث الرومان والإغريق وردته إلى البشرية بعد اندثاره بمئات السنين ما

"س . . . "